الدكتور برنارد لويس

إيران في الرؤية الاستشراقية الغربية ومفارقات التاريخ وصدام الاتجاهات

بما طرحته أعمال برنارد لويس من قراءات نحو الشرق، اصبحت من ركائز صناعة النظرة الغربية الاستشراقية التي تجعل من المخيلة هي بوصلة الاتجاه لكل تحرك غربي يرتكز على هذه الصناعة التي جعلت منذ قرون رؤية الشرق داخل هذه الزوايا محدودة الآفاق.

برنارد لويس له قراءات لتاريخ ايران، فهي في الدين والمعتقد اليهودي ـ وهو المنتسب إليه ـ علاقة المنقذ في التاريخ، و بناء وهمية حق العودة لأرض الميعاد. هنا يطل اسم الملك الفارسي قروش (640 ـ 600 قبل الميلاد) الذي عاد في الحاضر عبر وعد بلفور عام 1917م.

نجمي عبدالمجيد

حالات التقارب ما بين الماضي واليوم في وعي برنارد لويس عن العلاقة بين اليهود والفرس ظلت من حلم الالتقاء على قاعدة الهيمنة على العالم الاسلامي والعربي من مقدسات الاعتقاد بصفاء النوع والانتماء الانساني المبتعد عن الجامعة العامة للشعوب ،والحضارات، بل تكون في وعي الذات عندهما الرغبة في الاستحواذ المنفرد في قيادة ما تصل إليه قوة السطو لديهما عبر قمع الآخر وانزاله إلى مرتبة الدونية عند حدود التقديس.

تطل علينا في هذا الاتجاه قبضة الدين والمذهب عند كل منهما. هو التسليح الاعتقادي، والمعتقد هو الغذاء الروحي في كيانات هذه الجماعات التي تغلف وعي الاتباع بهذا الكم الكبير من جعل الاكاذيب فرض الحقائق بل السند الالهي حامي حقها، وبرنارد لويس يطرح من هذا الفكر ما يرسم بعضاً من الجغرافيا التاريخية والنفسية لمعرفة نوعية العلاقة بين اليهود وفارس.

نقف في هذه القراءة عند بعض الاطروحات عند هذا المستشرق نحو هذا الجانب حيث يقول: (ايران تمت اسلمتها بالفعل ولكنها لم تعرب، وبعد فترة كمون برزت ثانية كعنصر مستقل مختلف ومميز في اطار الاسلام، وفي آخر الأمر اضافت عنصراً جديداً للدين ذاته. الاسهام الايراني في هذه الحضارة الاسلامية الجديدة ثقافياً وسياسياً وحتى دينياً شديد الأهمية وهو أمر لافت للنظر أكثر من سواه.

التأثير الايراني ملحوظ في المجال الثقافي بما في ذلك الشعر العربي الذي أسهم فيه على نحو متميز شعراء من أصول ايرانية بقصائد عربية، الاسلام الايراني بمعنى ما يعد مجيئاً ثانياً للاسلام نفسه وهو اسلام جديد يشار إليه احياناً باسلام العجم. وكان هذا الاسلام الفارسي وليس الاسلام العربي الأصلي هو الذي انتقل إلى الشعوب الجديدة إلى الاتراك في آسيا الوسطى أولا ثم في الشرق الأوسط في ذلك البلد الذي اصبح اسمه تركيا وإلى الهند بالطبع.

الاتراك العثمانيون حملوا معهم شكلاً من الحضارة الايرانية إلى أسوار فيينا، فهذا زائر تركي من القرن السابع عشر ذهب إلى فيينا ضمن احدى السفارات العثمانية يشير مدهوشاً إلى ان اللغة التي كانوا يتكلمونها هناك كانت فارسية مشوهة، ولابد من ان يكون هذا الزائر قد لاحظ الصلة الهندوأوروبية بين الفارسية والالمانية).

مما يوجد في اطار هذه السرديات ندخل إلى نقاط تقارب بين الفارسية واليهودية وصياغة منهل آخر عقائدياً هو الاسلام الفارسي وهذا يصنع قارة مغايرة بما عرف عن الاسلام كدعوة عالمية ليست لها من حصرية إلا في اطار هذه الذات المترفعة عن الانتماء العربي لهذا الدين.

لم تطرح هذه الفكرة الفاصلة في جوهر الدين الواحد إلا لتقسيم الكيان والهوية.

للفارسية كثقافة وتاريخ واسهام، حضورها في الخلافة العباسية، العرب لم يكونوا من الوجهة الفارسية أهل حضارة بل مجرد بدو من الصحراء القاحلة اغتصبوا شيئاً هو ليس لهم.

لذلك شكل دخول العنصر الفارسي على هذا الجفاف مثل نزول المطر على الأرض الجافة.

وكأن برنارد لويس يقول لنا: لولا دخول الفرس الاسلام ما كانت تقوم له حضارة وما اتصل فكرياً مع شعوب هم أرقى من العرب، وهناك يخرج شكل الدين ـ الاسلام الذي صنع وتشكل في عقلية الفرس عبر قطيعة معرفية مع اسلام العرب.

القرابة بين الديانتين اليهودية والإيرانية كانت الدلالة الواسعة المدى في تاريخ العالم

هذا النوع من الاستعلاء في النزعة الذاتية يطرح مكونات الطرف الآخر مهما كانت هي المنطلق والأصل والاكتمال. عند نقطة الدونية غير القادرة على حمل رسالة السماء لذلك لابد من كشف الباطن الذي حجب عن أمة لم تعرف من الحضارة الزاد المعرفي.

ان حضور مصطلح (الاسلام الفارسي) يرفع حدة الاعتداء والعدوان مع الآخر حيث يدخل الحق الرباني المطلق في وضع العودة إلى مسار الاستقامة في هذا الدين تحت قيادة الفرس.

وهو ما خلق شعور الحرب والتكفير ضد العرب، وكأننا في ساحة صراع بين الاسلام الفارسي والاسلام العربي وهو ما يعمل به في الراهن.

مما يقدمه لنا برنارد لويس عن تاريخ العلاقة بين الفرس واليهود الداخلة في العقيدة المقدسة الديانة اليهودية، يذكر بعضاً من سرديات كتاب التوراة ـ العهد القديم حيث يحدد أول ظهور لاسم فارس وجد في سفر حزقيال، ويأتي بعدها ذكر قورش في سفر اشعيا والتي تبدأ من بعد الاسر البابلي عام 586 قبل الميلاد. ويرى الكاتب ان المفردات والمعاني التي يتكلم فيها هذا السفر عن الملك الفارسي الوثني مثيرة للغرابة والتفكير، فهو وكأنه المسيح القادم من عند الرب لانقاذ شعب اسرائيل من الخراب والضياع بعد سقوط هيكل سليمان على يد نبوكد نصر ملك بابل 605 ـ 562 قبل الميلاد.

والاجابة عن هذا الاندهاش في الأمر وهو ان قورش يمكن القول عنه انه بلفور ذلك الزمان، لانه أصدر اعلاناً بحق اليهود بالعودة إلى فلسطين واستعادة وجودهم السياسي.

ما بين مسافات التاريخ بين الحاضر والماضي تتكون خرائط الالتقاء بين اليهود والفرس ضد العرب والاسلام.

وان نظرنا لما يجري من صراع في المنطقة سوف نرى مسارات هذا التحالف التاريخي كيف ينفذ عبر خداع الغير.

ومن اطروحات القراءة الاستشراقية في هذا الجانب يقول برنارد لويس: (على مدى ألف عام تقريباً ظلت ايران مرتبطة بالاسلام وفي القرون الأحدث كان ارتباطها بالاسلام الشيعي الذي يراه البعض تجلياً للعبقرية القومية الفارسية في ثوب اسلامي، بل ان البعض يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ومنهم كتاب أوروبيون من القرن التاسع عشر مثل جوبينو يرون سيادة المذهب الشيعي انبعاثاً لآرية ايران في مواجهة سامية الاسلام. مثل هذه الافكار لا تحظى بمصداقية اليوم رغم رواجها في فترة ما ورغم ان هناك من يؤيدونها.

الصعوبة في مثل هذه النظريات تكمن في كون المذهب الشيعي مثل الاسلام نفسه جاء إلى ايران عن طريق العرب.

أوائل المتشيعين في ايران كانوا عرباً، وظل الأمر كذلك لفترة طويلة. مدينة قم حصن ومركز المذهب الشيعي الايراني انشاء عربي وأول من استقروا بها كانوا عرباً.

المذهب الشيعي أعيد ادخاله وفرضه بعد عدة قرون بواسطة الصفويين، وأذكر مرة اخرى بانهم كانوا اتراكاً، حتى ذلك الحين كانت ايران سنية بنسبة كبيرة، ولكن مما لا شك فيه ان المذهب الشيعي بدأ عهداً جديداً مع قيام الدولة الصفوية وكان ان ظهرت طبيعة شيعية ايرانية مميزة).

كان صعود الحكم الصفوي في فارس بمثابة مرحلة جديدة في تاريخ هذا البلد بل في قوة التأثير على صراعات المنطقة العربية مذهبياً وفكرياً.

فقد شهدت صعود دولة أحادية السلالة لأول مرة على مدى قرون.

جاء الحكم الصفوي بملامح جديدة ومنها الوحدة في ظل الفتح العربي الأول بدلاً من سيطرة دولة الخلافة العربية من اموية وعباسية، ومع تمزق تلك الخلافات الاسلامية دخلت فارس في هذا التفكك وذهب الحال السياسي فيها إلى اقاليم عدة لتكون تحت حكام محليين تعددت فيهم الاتجاهات.

كان الصفويون هم من جعل لايران مملكة متحدة، وهي الموجودة حالياً بحدودها. حدث هذا بالرغم من التنوع العرقي الكبير الذي يميز تلك البلاد إلى الآن.

المذهب الشيعي في هذا الجانب جاء بملمح آخر من حيث الاختلاف عن الدول المجاورة لفارس مثل الحكم العثماني السني في الغرب وعن دول آسيا الوسطى في الشمال الشرقي وعن الدول الهندية الاسلامية في الجنوب الشرقي.

كانت إيران سنية، ولكن مما لا شك فيه أن المذهب الشيعي بدأ عهداً جديداً مع قيام الدولة الصفوية عام 1501م

عن مسألة تحديد الهوية في هذا الاتجاه يقول برنارد لويس: (يرى البعض ان هذا الفارق يعود إلى امتلاك الفرس ثقافة متفوقة، والمعروف ان الثقافة الراقية تستوعب الثقافة الادنى ويستشهدون في هذا السياق بالمثل اللاتيني المشهور: اليونان المقهورة تقهر قاهريها الأشداء ـ بعبارة اخرى، الرومان يقبسون الحضارة اليونانية. المقارنة طريفة ولكنها ليست مقنعة، فالرومان فتحوا اليونان وحكموها كما فتح العرب ايران وحكموها، ولكن الرومان تعلموا اليونانية واعجبوا بالحضارة الاغريقية وقرأوا وترجموا وقلدوا الكتب اليونانية ولكن العرب لم يتعلموا الفارسية.

الفرس تعلموا العربية، والتأثير الأدبي الفارسي المباشر على العربية في حدوده الدنيا ثم انه جاء عن طريق المتحولين الفرس فحسب.

كان ذلك يعني ان الفرس ابان الفتح العربي وبعده مباشرة على خلاف جيرانهم في الغرب كانوا أقوياء استناداً إلى الذكريات الحديثة، بل يمكن ان نقول الحالية، عن قوتهم ومجدهم التليد.

هذا الشعور بالمجد القديم والاعتداد بالهوية والثقة بالنفس يظهر بوضوح في الكتابات الفارسية في الفترة الاسلامية، كتابات يمكن انها فارسية اسلامية بحرف عربية وفيها الكثير من المفردات العربية كذلك يمكن ان نرى الفرق في صور عدة: في ظهور ذلك النوع من الشعر القومي الملحمي الذي لا نظير له في العراق وسوريا ومصر أو غيرها من الأماكن، وكذلك في اختيار اسماء الاشخاص في منطقة الهلال الخصيب وجنوبها).

ليست الرؤية في هذا التحديد لحضور الهوية الفارسية تحصر في ذاتية الماضي بل هي قوى فاعلة في أزمات الراهن بين العرب وايران.

الجانب التاريخي ـ الاسلامي يقطع شكل الاتصال مع الأصل بل يسقط معظم انتساب النهوض في هذه الحضارة إلى العقلية الفارسية التي عرفت معارف لم تكن للعربية بها من صلة قبل دخول الثقافة الفارسية عليها.

ان فارق الاسهام الحضاري بين الفرس والعرب، هو القول الفصل عن تلك الأمة فلم يكن لفارس قهر العرب بعد ان قهروها بالفتح الاسلامي سوى صياغة الوعي العربي الاسلامي، هنا نصل إلى صعود المواجهة مع التاريخ.

فان كان العرب هم اصحاب الفتح الآني لفارس، فان فارس هي من أسهمت في تشكيل عقلية الأمة الاسلامية عبر قادة الفكر الذين جاءوا إلى الاسلام والعربية ليخلقوا هوية خاصة في عمق هذه الرسالة.. تعد الثقافة هي المقدرة الدائمة في صراع الهوية.

فان قبلت فارس الاسلام المذهبي فهي لن تقبل العرب، وهذا ما يتجلى في السرديات الأدبية والدينية الفارسية، بل في مكونات المراكز الفكرية للشخصية الفارسية، وهذا ما جعل الفتح العربي يقف عند حدود جغرافية محصورة في زمانه لكن الوعي الفارسي ظل هو الباقي في جوهر هذا الصراع.

ان قراءة برنارد لويس لهذا الجانب من تاريخ الاسلام ليست مجرد حالة استشراقية بل رسالة تقول لنا: الصدام بين الفرس والعرب لن ينتهي.

قورش ملك الفرس عام 549 قبل الميلاد هو من أعطى اليهود حق العودة إلى فلسطين فكان بلفور ذلك العصر